الشعبية

يتفرع من شرط (الإخلاص) في الدعوة مسألة دقيقة وخفية ؛ هي مسألة (الشَّعْبِيَّة) ؛ ومعناها : حبُّ الجمهور ، وإقبالُهُم على الداعية وقبولُهُم لكلامِهِ ودروسِهِ ومحاضراتِهِ ، وإذا حضر قاموا له تبجيلًا واحترامًا ، وإذا جلس تصدَّرَ المجلسَ .

من الطبيعة البشرية أن يحب الإنسان ذلك ؛ لكن هذه الشهوة الخفية إذا سيطرت على قلب الداعية أَفْشَلَتْ دعوتَهُ ، وإذا طرأَتْ على نَفْسِ العالِمِ أفسَدَتْ عِلْمَهُ .

عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تَعَلَّمُوا العلمَ لِتُبَاهُوا به العلماءَ ولا لِتُمَارُوا به السفهاءَ ولا لِتَحْتَازُوا به المجالسَ فمن فعل ذلك فالنارَ النارَ** » رواه ابن حبان .

مباهاة العلماء ، ومجاراة السفهاء ، والتصدُّرُ في المجالس أَشَدُّ منها الحرصُ على المحافظة على (الشعبية) ؛ فإذا كانت مكانةُ العالِمِ بُنِيت على اعتباره رمزًا من رموز « السلفية » مثلًا فإنه قد يغير ما اتضح له من الحق بالدليل والبرهان إذا كان يخالف السائد عند « السلفيين » ، وهذا يُؤَثِّر في تربية العالِمِ لتلاميذه :

أَحَدُ فقهاءِ الحنابلة السلفيين المعاصرين فَتَح حلقةَ درسٍ في الفقه ، وأخذ يُدرِّس متنَ « زاد المستقنع » فضاق صدر الطلبة بذلك ؛ لأن الفقه صعب ولا يقدر عليه إلا خواصُّ طلبةِ العلم ، وأحسَّ الشيخُ

بإعراضِ طلبتِهِ عن درسه فحَوَّلَ الدرسَ إلى شرح « سنن أبي داود » فأقبلوا عليه ؛ فقلْتُ له : أليس متنُ « الزاد » أنسبَ لهؤلاء الطلبة . فقال : نعم هو الأنسب ولكنَّ الطلبة في هذا الزمان يريدون « حدثنا » و « أخبرنا » . نعم هذا هو داء « الشعبية » ، فهذا العالِمُ بدلًا من أن يُربِّي تلاميذَه على ما يناسبهم من العلم خضع لميولهم وأهوائهم ؛ وبذلك تولَّدَ في زماننا هذا في ميدان العلم والدعوة ما أُسمِّيه بـ « دكتاتورية الجمهور » ؛ فإذا كان الجمهور هو الذي يُمْلِي على العالِمِ والداعيةِ آراءَهُ ومواقِفَهُ فتلك والله تربيةٌ فاسدةٌ ، ودعوةٌ فاشلةٌ .

عند ما ترجَّحَ لَدَيَّ بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوالِ السلف وجوبُ المحافظة على الآثار النبوية ومشروعيةُ التبرك بها بقيتُ ستَّ سنين مترددًا في نشر ذلك ؛ لأنه مُصَادِمٌ لمألوف جمهور طلبة العلم ؛ وأخيرًا قررتُ نشرَ ما ترجَّحَ عندي ، وأنا مُوقِنٌ بأنني سأفقد كثيرًا من « شعبيتي » ، حتى إنَّ أحدً من أفاضل هؤلاء _ أعني جمهور طلبةِ العلم السلفيين _ صَعَدَ على منبر الجمعة ونَعَى رمزًا من رموز « السلفية » اعتَبَرَ أنه انتهى ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل وبكى حزنًا وأسفًا ..

هذا الناعِي لي دون أن يُسَمِّينِي جَارٌ لِي ؛ ومع ذلك لم يفكر في أن يجتمع بي ويناقشني كما يقتضيه أدبُ السلفِ .

المحدِّث المشهور الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله كان من أَجَلِّ رموز المدرسة السلفية في عصرنا ، وأكثرُ ما كان يعجبني في شخصيته القياديةِ العلميةِ : حريةُ الرأي ، وشجاعتُهُ في العلم ، وحرصُهُ على تربية جمهوره على ما يعتقد أنه الحق بصرف النظر عن أهوائهم ومألوفاتهم ؛ ولذلك صادَمَ جمهورَ المشايخ في تكفيرهم لتارك الصلاة كسلًا وتهاونًا ، وألَّفَ رسالة في الرد عليهم ؛ اعتبر فيها هذا الرأيَ من آراء الخوارج ؛ لأنه تكفيرٌ بالكبيرة ..

وسَاءَهُمْ ذلك وغضبوا فمنعوا الرسالةَ من دخول المملكة ؛ وهذه حيلةُ المُسْتبدِّ : التكتُّمُ على الرأي المُخالِف .

اختلفتُ يومًا مع رفيقٍ لي في الدراسة في زكاة الفطر : هل يخرجها من الأصناف أم يجوز إخراجها نقدًا ؛ فقال هو بوجوب إخراجها من الأصناف المذكورة في الحديث ، وقلتُ أنا بجواز إخراجها نقدًا ، وقرَّرْنَا الاحتكامَ إلى الشيخ الألباني ، وكان وقتَهَا في المدينة النبوية ، وذهبْنَا إليه ، وسبقني رفيقي بالكلام وقال : - تعلمون فضيلتكم أن النبي ﷺ حدَّدَ في الحديث أصنافًا على من يريد أداءَ زكاةِ الفطرِ أَنْ يُخْرِجَهَا منها ، وأنَّ الحنفية خالفوا الحديثَ وأجازوا إخراجَ القيمةِ ، وإنَّ زميلي عبد العزيز يتبنَّى هذا الرأيَ فأوَدُّ أنْ تُبَيِّنُوا له بطلانَهُ .

- قال الشيخ الألباني متبسمًا : ولكني أرى هذا الرأيَ .

وصُعِقَ رفيقي وارتبَكَ ، وكَثُرَ لَغَطُهُ وغَلَطُهُ ؛ فقال الشيخ بكل هدوء :

- الذي ترجَّحَ لَدَيَّ في زكاة الفطر أنَّ المُزَكِّي يُخْرِجُ الأصلحَ والأنفعَ للفقير ؛ فإن كانت الأصناف هي الأنفعَ له أخرَجَ من الأصناف ، وإن كانت القيمةُ هي الأنفعَ له أخرَجَ القيمةَ ، دلَّ على ذلك قولُهُ ﷺ في زكاة الفطر : « **أَغْنُوهُمْ ذلكَ اليومَ عن السؤال** » فإغناؤهم عن الاحتياج إلى السؤال يومَ العيد مقصَدٌ شرعي ؛ فبأيِّ شيءٍ حصَلَ الإِغْنَاءُ فهو المطلوب .

وكان درسًا مهمًا في وجوب التأني في العلم ، والنظر في مجموع الأدلة وليس طرفًا منها ، وظهرت استقلالية الشيخ في اجتهاداته وعدم تأثره بما هو سائد في البلد.